جون ستيوارت مِل
الفيلسوف الحر . . والعاشق الجرىء
(١٨٠٦ م - ١٨٧٣ م)

الفيلسوف

الإنجليزى «جون ستيوارت مل» من الفلاسفة الإنجليز المعروفين، وقد كان عبقريا منذ طفولته، بل يعتبره النقاد والمؤرخون خارقا للطبيعة، فقد درس اللغة اليونانية وهو ابن ثلاث سنوات، وقرأ أرسطو، ومحاورات أفلاطون و «هيرودوتن»، «اكسنيوفون» وهو فى الثامنة، ثم تعلم اللاتينية، واتسعت دائرة قراءاته فى الحادية عشرة فقرأ «شيشيرون»، «فرجيل»، «هيوم»، «ألف ليلة وليلة»، روبنسون كروزو»، «دون كيشوت»، وقرأ فى علوم الطبيعة والاقتصاد السياسى ونظريات «آدم سميث»، «ريكاودو»، ومنطق أرسطو وأفلاطون. كان أبوه يشجعه على القراءة والتحصيل بكل الطرق الممكنة فأعد له مكانًا مناسبًا حافلاً بالكتب والهدوء الذى يساعد على القراءة والتأمل، كما كان يجيب عن أسئلته الكثيرة مهما كان مشغولا، وكثيرا ما كان يتنزه معه صباحًا ومساءًا يناقشه فيما قرأ، وكان الفتى «مل» موهوبًا فى الفهم وقادرا على الاستيعاب وربط معارفه ببعضها. سافر «مل» إلى فرنسا وهو فى الرابعة عشرة وقضى بها عاما تعلم خلاله اللغة الفرنسية، وأعجب بأخلاق الفرنسيين وسلوكهم، واتجه إلى الكتابة

وهو فى السادسة عشرة من عمره، التحق بكلية «ترينتى» بكمبردج على الرغم من أنه كان يعتقد أن الجامعات معقل الرجعية، وعمل فى شركة الهند الشرقية عام ١٨٢٣ مما جعله ينقطع عن الدراسة فى الجامعة، ولم يمنعه ذلك من تأليف جمعية من زملائه بالجامعة تبشر بالمذهب النفعى، ومتابعة نشاطه الفكرى والسياسى فأخذ يكتب فى الصحف داعيا لمذهبه ومذهب أبيه وأستاذه «بنتام» فى الفلسفة النفعية واكتسب المذهب النفعى على يديه حيوية وجدية واعتدالا وحكمة، وأنكر أن تكون السعادة - وهى جوهر النفعية - غاية مباشرة أو شعورا قائمًا، فبمجرد أن تسأل نفسك عما إذا كنت سعيدا، توقف شعورك بالسعادة بانصرافك إلى السؤال وجوابه.. اتصل «جون ستيوارت مل» بمذهب «سان سيمون» وأعجب بفكرته وفلسفته التى تقوم على إعادة تنظيم المجتمع عن طريق العلم، ارتقى فى وظائف شركة الهند الشرقية إلى أعلى درجاتها، ولم تمنعه الوظيفة من البحث فى الفلسفة والمذاهب المختلفة والإنتاج العلمى فصدرت له عدة كتب، وحفلت الصحف والمجلات بمقالاته وأبحاثه فى الفلسفة والسياسة والمنطق ونادى بالإصلاح الاجتماعى والنيابى وحقوق المرأة، وفى سنة ١٨٦٥ انتخب عضوا فى مجلس العموم البريطانى، وكانت فرصة كبيرة له، ثلاث سنوات يدعو ويدافع عن أفكاره وآماله فى إصلاح المجتمع وتحرير المرأة، وفى المرحلة التالية لم يحالفه الحظ فى النجاح فى البرلمان لمدة ثانية فاعتزل وعاش لأبحاثه وفلسفته وحسب. عاش «مل» [١٨٠٦ - ١٨٧٣] ينادى بالنفعية والحرية واحترام حرية الفرد وكان صورة

صادقة لعصره ويعتبر كتابه «عن الحرية سنة ١٨٥٩» أقوى ما كتب فى هذا المجال وأكثر إقناعاً ذلك لأنه كتبه عن اقتناع كامل وإيمان بالحرية وحقوق الأفراد. يقسم «مل» كتابه إلى خمسة فصول هى:

تمهيد لفكرة الحرية، الفصل الثانى: حرية الفكر والمناقشة، والفصل الثالث: الفردية كعنصر من عناصر الحياة الطيبة، الفصل الرابع: حدود سلطة المجتمع على الفرد، الفصل الخامس: تطبيقات وتلخيصات لمذهبه.

فى الفصل الأول يقول «مل»: لا يجوز التعرض لحرية الفرد إلا لحماية الغير منه، أو لمنعه من الإضرار بغيره، فهو الغاية الوحيدة التى تبرز السلطة التى تحكمه، وتنتفى دونها كل غاية حتى وإن كانت لحماية الذات، فلا يجوز إرغام الفرد على انتهاج سلوك معين بحجة حمايته من الإضرار بنفسه أو ماله، وإن وجدت أسباب كافية لمناقشته فيما ينبغى عليه لحفظ ذاته وماله، إلا إنها ليست على مطلق التصرف فى جسمه وعقله، غير أن «مل» يتحفظ من تطبيق فلسفته هذه على القُصَّر من الأطفال والمراهقين، ممن يحتاجون إلى رعاية غيرهم وتوجيههم، كذلك عدم تطبيقها على الشعوب المتأخرة فهى أشبه بالقاصر الذى يحتاج إلى الرعاية والتوجيه، فالأصل فى الحرية ألاَّ يجوز منحها قبل أن يصبح الشعب قادرًا على أمره مدركًا لصالحه يعى حرية المناقشة ويعرف معنى المساواة.

الفصل الثانى يتحدث فيه «مل» عن حرية الفكر والمناقشة، فلا يجب على أية حكومة أن تخرس فردًا واحدًا عن إبداء رأيه، فلو اجتمع

الناس قاطبة على رأى وخالفهم فيه فرد واحد ما جاز إخراسه، فليس الإجماع دليلا على الصواب، وليست القلة دليلا على الخطأ، وحرمان الفرد من إبداء رأيه مضرة للناس وحرمان للإنسانية من دواعى الرقى والتقدم، فإذا كان الرأى صوابا فقد حرم المجتمع من فرصة التغيير، وإن كان خطأ فقد حرم من فرصة المقارنة التى تؤكد ما هو عليه من حق، وكلما تعدى الإنسان بفكره عالمه الضيق إلى عالم أرحب، كان هذا دليلا على رحابة أفقه وتحرر تفكيره، وبعد نظره، لكن الناس يصدرون فى أحكامهم عن إجماع ضيق، لا يدينون بغيرها، فلم يخطر ببالهم أن المسيحى فى لندن كان من الممكن أن يكون بوذيا فى بكين، فليس هناك يقين مطلق، فإذا كنا نفترض الصواب فيما نراه فعلينا أن نجلوه بالبحث والمناقشة وإبداء الرأى فى صوابه أو ضلاله، وعلى الإنسان أن يهتدى بعقله ليقوم ذاته، ولن تهديه التجربة قدر ما تهديه المناقشة، ولن يرى الحق إلا من خلال ما يسمع من آراء غيره.. فالرأى مهما بلغ فساده ومهما كان من إيمان الناس بضرره، فليس هناك ما يبرر حرمان صاحبه من عرضه والدفاع عنه حتى وإن تعرض هذا الرأى بالنقد للعقيدة أو الآداب المرعية، فالحق يوجب أن نستمع إلى كل رأى مخالف مهما بلغ إجماع الناس على مخالفته.. ويضرب لنا الفيلسوف «مل» مثلاً على إجماع الرأى الخاطئ فيروى كيف خطّأ المجتمع اللاتينى أبا الفلسفة [سقراط] واتهمه بإفساد عقول الشباب ودفع الحكومة على محاكمته وإعدامه، وهو أجدر أهل جيله بالتقدير والإكبار، ومثل آخر

يذكره المؤلف وهو كيف واجه شهداء المسيحية من الإنكار والتعذيب ما يحملنا على السخط على معذبيهم واتهامهم بكل نقيصة: بل إن القديس بولس نفسه كان أحد أولئك الراجمين والمعذبين، فكم قهر الباطل الحق وقضى عليه، فإن لم يقض عليه تماما، فقد عاق ظهوره وعطل انتشاره.

يتحدث «مل» فى الفصل الثالث من كتابه الرائع «عن الحرية» عن الفردية كعنصر من عناصر الحياة الطيبة، ولكن لا يجوز للفرد أن يجلب السوء للآخرين، ولن تستقيم الحياة ما لم تتأكد شخصية الفرد، ولكل فرد أن يختار لحياته ما يرضيه وما يراه متفقا مع خصاله، بل إن الحرية والفردية هى التى تقدم لنا عباقرة المجتمع بما تضفيه عليهم من تفتح وانطلاق، ويعرض لقضية الدين فيقول:

إذا كان الدين يعرفنا أن الله خالق الإنسان حكيم، فأحرى بنا أن نعرف حكمة ما غرسه فى نفوسنا من نوازع وأهواء، فنتعهدها ونرعاها، فإنه - جل شأنه - ليسر ويبتهج إذا ما رآنا نقترب فى تحقيق ما ركب فى طباعنا من المثل العليا، ونمضى فى تقوية ما غرس فى نفوسنا من قدرة على الإدراك والعمل والاستمتاع.. ويقرر «مل» أن شر ما يبتلى به التقدم والارتقاء هو استحكام العادة فى حياة الشعوب مما يضعف شخصية الفرد ويصيب الأمة بالجمود..

وفى الفصل الرابع يتناول «مل» حدود سلطة المجتمع على الفرد فيقول: إن ما يخص الفرد وحده هو من حقوقه، وما يخص المجتمع فهو حق للمجتمع، فالفرد حين يعيش فى رحاب المجتمع ويتمتع

بحمايته يرى نفسه مدينا له، ومطالبا بسلوك معين قبل أفراده فعليه أولا أن يتحاشى الإضرار بمصالح الغير، وعليه - ثانيا - أن يتحمل نصيبه من التضحية التى يتطلبها المجتمع، كحمايته من الأذى أو دفع العدوان عنه، فإن أهمل ذلك حق عليه عقاب المجتمع عن طريق القانون أو طريق الرأى العام، وفيما عدا ذلك فللفرد حريته كاملة غير منقوصة، فإذا جاز لنا إرشاده وتقويمه بما للناس على بعضهم البعض من واجب ورعاية، لم يجز لنا إكراهه على شىء أو حمله عليه عنوة وقسرا، فما من إنسان أبصر بمصلحته غير نفسه، وإن كان عليه أن يكون بصيرًا بما يتفق عليه الناس من قواعد عامة كى يكون عليما بما ينتظره منهم ويحظى بتقديرهم.. ويلخص «مل» فكره ونظريته فيقول: «غاية ما أقوله، وأعمل على إثباته، هو أنه لا يجوز للمجتمع أن يتدخل فى شئون أفراده إلا فيما يتحاور ذواتهم إلى ذوات الآخرين، فالإنسان حر فى كل ما يتعلق بذاته، ولكنه ليس حرا فى أن يصيب الآخرين بضرر، فالكذب والغش والخداع والظلم، بل السلبية التى تؤدى إلى مضرة بالغير، مما تعرض صاحبها للتوبيخ، إن لم تؤد إلى الجزاء القانونى عندما تقع تحت طائلة القانون، وإن كانت هناك صفات تؤلف خُلُقا خبيثًا كالنفاق والطمع والأنانية والحسد، يَسِمُ صاحبها بالحمق وتفقده الهيبة والكرامة، ولكنها لا تجيز العقاب إلا إذا ترتب عليها إخلال بواجبات الفرد نحو غيره، فهناك فرق كبير بين ما يستحقه الفرد لعيب ذاتى، وبين ما يستحقه لعيب تقع مضرته على الغير، فإذا كنا نتجنب الشخص لعيب فى ذاته، فليس من حقنا أن ننغص حياته

ونقلق راحته فحسبه ما ينال من سوء المصير، بل إن واجبنا أن نهون عليه بإرشاده إلى سبيل الخلاص. ولكن من الأفعال الشخصية الذاتية ما يمس الآخرين بطريق غير مباشر، فالسفة وتبديد المال قد لا يقف ضرره على صاحبه، بل يمتد إلى ذوى قرباه أو من يعولهم، والإضرار بالصحة قد يؤدى إلى العجز فيصبح الفرد عالة على غيره، فإن لم يكن هذا أو ذاك فإنه قدوة سيئة يمكن أن تمتد عدواها إلى المجتمع، ومثل هذه الأفعال إذا تجاوزت الذات إلى الإخلال بحقوق الغير وقعت تحت طائلة الجزاء الأدبى، لا للسلوك ذاته، ولكن لما يترتب عليها من أذى للآخرين، فمن ينفق ماله فى وجه مشروع ليس كمن ينفق ماله سفها إذا كان هذا المال معدا للإنفاق على الأسرة أو للوفاء بدين، والشرطى الذى يسكر أثناء قيامه بعمله، حينئذ يتجاوز السلوك نطاق الحرية ويندرج تحت دائرة الجزاء الأدبى أو القانونى متى أصاب فردًا أو جماعة بضرر.

ويختتم «مل» كتابه بالفصل الخامس وهو تطبيقات على آرائه فيقرر حقيقتين هما خلاصة بحثه عن الحرية:

أولاهما: أن الفرد حر فيما يفعل، وليس للمجتمع أن يفرض عليه أية مسئولية فيما يتعلق بذاته منها، إلا أن ينصح ويرشد ويوجه.

ثانيهما: أن الفرد لا يسأل أمام المجتمع إلا إذا مست أفعاله الغير وتالتهم بضرر، وللمجتمع حينئذ أن يوقع بالفرد من العقاب الأدبى أو القانونى ما يراه كفيلا بحماية مصالحه.

ولا يرى «مل» فى القيود التى تفرض على التجارة والصناعة ما يتعارض

مع الحرية الشخصية ما دامت قاصرة على ما يمس المجموع، فمراقبة الغش وفرض شروط صحية على المصانع وتحريم بيع السموم لا تعد اعتداءً على حرية البائع ولا تتعارض مع مبدأ حرية التجارة أو الحرية الشخصية كذلك ينطبق ذلك أيضًا على حق الحكومة فى فرض التعليم الإلزامى ومنح الدرجات العلمية والشهادات العامة.

هكذا ينتهى «مل» من بحثه فى أخطر موضوع يشغل الإنسان منذ وجد فى هذا العالم حتى الآن، وحتى قيام الساعة، موضوع الحرية التى تكافح الشعوب من أجلها، والتى استشهد فى سبيل تحقيقها ملايين البشر على مرِّ السنين. استطاع «مل» أن يكون موضوعيا وحاول أن يقيم نوعا من التوازن بين الفردية والجماعية، وخرج على مذهب أستاذه «بنتام» فى طبيعة المنفعة، فقد فضل أستاذه منفعة الفرد على منفعة المجتمع، بينما فضل «مل» منفعة المجتمع على ألاَّ تطغى على حرية الفرد.

ولأن كتابه «عن الحرية» هو من أهم كتبه فقد أهداه إلى حبيبته وعشيقته وصديقته وزوجته بعد ذلك السيدة «هاريت تيلر» التى لعبت دورًا مهما فى حياة فيلسوفنا «جون ستيوارت مل John stuart mill». سنعرض له بعد أن نتحدث عن كتبه الأخرى، فلم يكن كتابه عن الحرية هو كتابه الوحيد، وإنما كتب «مل» عدة كتب منها:

- مقالات عن المسائل الاقتصادية.
- مذهب فى المنطق القياسى والاستقرائى.
- الاقتصاد السياسى.

- دراسة لفلسفة هاملتون.
- اللاهوت الطبيعى.
- مقالات عن الدين، ظهر بعد وفاته.

نستطيع أن نلخص المبادئ الأساسية فى أخلاق «مل» فى اهتمامه باللذة وأن السعادة فى نظره هى اللذة وانتقاء الألم، غير أنه ربط بين اللذة أو السعادة والخير، وأنه ينبغى علينا فى شتى قراراتنا أن نفضل الملذات العليا، وهى الملذات التى تشمل الملذات الاجتماعية والكريمة، كما تشمل أيضًا ملذات المشاعر المهذبة وملذات العقل.

يقول مل: إننا نستطيع أن نصحح – إلى حد ما – معتقداتنا وأن نقوّم شخصياتنا إذا أردنا أن نفعل ذلك، والمناقشة الأخلاقية لا تذهب عبثا، إذْ هَى تساعد الإنسان على أن يحدد نوع الشخص الذى يريد أن يكونه.. ويضيف مل: تكون الأفعال صحيحة بقدر ما تعمل على زيادة السعادة، والسعادة التى نبحثها ليْست هى سعادة الفاعل، بل كل من يتعلق بهم الفعل، السعادة العامة ينبغى أن تكون شيئا ينظر إليها «مجموع الأشخاص جميعا» على أنها شىء حسن أو مرغوب فيه.. يريد «مل» أن يقول لكل إنسان «أنت حر ما لم تضر»، ولا تجعل سعادتك على حساب الناس، فالشخص السعيد هو الذى يعيش بين السعداء.. جاهد «مل» أيضا من أجل إنشاء حكومة قائمة على الطبقات العاملة عملا بفلسفة الاشتراكية، وإنشاء ضمانات دستورية لحقوق الأقليات، وكان يرى أن تنفق الحكومة على التعليم لا أن تقوم به. وفى مقالاته عن «اللاهوت

الطبيعى» يدافع «مل» عن إمكان قيام عقل بلا جسم، ومن ثم فهو يدافع عن إمكان الخلود، كما يفحص أيضًا بروح علمية مسألة وجود الله، ويحول العملية من منطقة الاعتقاد إلى منطقة الأمل البسيط، فقد يتأمل الإنسان فكرة الكمال الإلهى، كما قد يتأمل الأناجيل ويأمل فى الخلود، ولهذا كله قيمة عملية، أما مقالاته عن الدين والتى ظهرت عقب وفاته فقد أدهشت زملاءه وأصدقاءه لما تحمل من عاطفة طبيعية دينية.

قلنا: إن السيدة «هاريت تيلر» قد لعبت دورًا مهما فى حياة «مل» وهذه حقيقة تذكرها كل المراجع والكتب التى تناولت الحديث عن الفيلسوف «جون ستيوارت مل» فما هى قصة هذا العشق والحب؟

فى عام ١٨٣١ التقى [مِل] بالسيدة هاريت تيلر زوجة السيد «جون تيلر» رجل الأعمال والمشغول دائمًا بتجارته وعمله. ويبدو أن الحب من أول نظرة جذب الاثنين لبعضهما، «مل» شاب فى الرابعة والعشرين من عمره، متقد الذكاء مثقف لا يفكر إلا فى كتبه وفلسفته والعلاقات الإنسانية وكيف يحقق الإنسان - كل إنسان - سعادته الشخصية؟ أما هى «هاريت» فكانت امرأة ذكية فى الحادى والعشرين ربيعا، محبة للقراءة وبخاصة فى الفلسفة والعلم والمنطق، كانت تملك وقت فراغ طويلا، إذ كان زوجها مشغولا عنها بأعماله وتجارته، كأى رجل أعمال كبير، واستطاعت أن تستفيد من وقت فراغها وتشغله بالقراءة والإطلاع، عرفت «مل» قبل أن تراه من خلال كتاباته وأعجبت بفكره وأسلوبه وفلسفته حتى قالت عنه: «جون ستيوارت مل» يمثل غاية ما فى البشرية من سمو».

عندما التقيا لعب كيوبيد «إله الحب عند اليونان» بقلبيهما، فوجد كل منهما الميل إلى الثانى، وبخاصة «هاريت» التى كانت تقرأ «لمل» وتعجب به أيما إعجاب، تكرر اللقاء وازداد الوفاق وتملك الحب من الاثنين، وانتظم لقاؤهما على الغذاء مرتين فى الأسبوع؛ وساعد على اشتعال الحب بينهما عدم اهتمام الزوج بهذه العلاقة وسماحته غير العادية نحو علاقتهما، وبلغت هذه السماحة أن سافر العاشقان المحبان الولهانان فى جولة ثقافية بأوربا، الغريب والعجيب فى نفس الوقت أنه على الرغم من سماحة السيد «جون تيلر» مع زوجته العاشقة «لمل» إلا إن الأهل والأصدقاء عبروا عن ضيقهم وضجرهم واستيائهم من هذه العلاقة السافرة، لكن «مل» لم يأبه باعتراض وضيق الآخرين بل وضرب عرض الحائط بهم واعتزلهم ليتفرغ لحبه وعشقه الذى ملأ عليه حياته وأغناه، وقد وصف «مل» علاقته بالسيدة «هاريت» بأنها علاقة بريئة استمرت أكثر من عشرين عاما، وعندما توفى السيد «جون تيلر» سنة ١٨٥١ وجد المحبان العاشقان الفرصة متاحة للزواج فتزوجا فعلا، وظلت السعادة ترفرف على الزوجين العاشقين لمدة سبع سنوات، إذ أصيبت «هاريت» بمرض الالتهاب الرئوى الذى قضى عليها فرحلت تاركة الحزن واللوعة فى نفس الزوج المحب والعاشق الولهان، وعاش فى أفينيون فى مكان يطل على قبر الحبيبة الغالية حتى لا يتركها ولو بعد الرحيل. ويبدو أن وصف «مل» للعلاقة التى كانت بينه وبين حبيبته «هاريت» قبل الزواج بأنها علاقة بريئة كان وصفا صادقًا لأن

الصداقة كانت فكرية وعقلية أكثر منها جسمية، إذ إن المحبين عملا معًا فى مجال الفكر والكتابة و الترجمة الذاتية، ويعترف «مل» بفضل «هاريت» عليه فى إنجاز الكثير من إنتاجه، وذكر ذلك واضحًا فى كتابته لسيرته الذاتية، تقول الموسوعة الفلسفية المختصرة فى هذا المجال:

كانا يحاولان أن يكملا مخططا لآرائهما، ففى ذلك ما يكفيهما إذ هو «نوع من الغذاء العقلى المركز يمكن أن يتغذى عليه المفكرون من بعدنا - إذا جاء بعدنا مفكرون - وأن يقدموه بدورهم مخففا لغيرهم من الناس..».

عاش «مل» بعد وفاة زوجته الحبيبة على ذكراها، يطل من داره على قبرها، ولم يجد العزاء إلا عن طريق العمل فوهبه كل وقته، ولم يبخل على مريديه وتلاميذه بالجلوس معهم والاستماع إليهم، كذلك كان يقوم بزيارة ابنة زوجته من حين إلى آخر، ورحل «جون ستيوارت مل» عن عالمنا سنة ١٨٧٣ وهو فى السابعة والستين من عمره فى بيته فى أفينيون، وكان حلقة رئيسية بين الفكر المتحرر فى إنجلترا وبقية العالم.

رحل فيلسوف الحرية الذى طالما نادى بأن الإنسان سيد نفسه وبدنه وعقله بشرط ألا يضر بالآخرين..

رحل العاشق الجرىء فى حبه ما دام بريئا..